

المرأة في رحلات عميد الرحالين في المملكة العربية السعودية

الشيخ محمد بن ناصر العبودي

Woman in the Journeys of the Dean of Travelers in the Kingdom of Saudi Arabia

Sheikh Mohammed bin Nasser Al-Aboudi

د. أحلام بنت عبد العزيز بن عبد اللطيف الوصيفر

أستاذ الأدب والنقد المساعد

جامعة الملك فيصل/ المملكة العربية السعودية

aalosaifer@gmail.com

تاريخ النشر: 30-06-2025

تاريخ القبول: 03-06-2025

تاريخ الإرسال: 12-05-2025

الملخص:

تتناول الدراسة ثغرة من ثغور أدب الرحلات وعنصر هام من عناصرها ألا وهو (المرأة) والتي هي ركن من أركان رحلة الأديب، لا يجد مناصا من الوقوف عندها؛ لوجودها أمامه في رحلاته. والمرأة محور هام وقضية هامة من قضايا أدب الرحلات لا بد من دراستها، والخوض في أعماقها، خاصة وأنها العنصر الثاني من عناصر الحياة البشرية التي لا تتكون الحياة إلا منها وبها ومن الرجل، حتى قرأنا عنها في كتاب الله، وسنة المصطفى، وعند الأدباء شعرا و نثرا. وتوصلت إلى ضرورة البحث عنها في رحلات سيرة رحلية في أدبنا السعودي، وهو الشيخ محمد بن ناصر العبودي.

الكلمات المفتاحية: الرحلة العربية ، محمد العبودي ، الأوائل من الرحالة ، المرأة في الرحلات، الآخر من الشعوب.

Abstract:

This study addresses a gap in the field of travel literature by focusing on an important and often overlooked element: women. Women are considered a fundamental part of any journey for the writer; he cannot ignore their presence in his travels.

Women are a central theme and a critical issue in the study of travel literature. Exploring their roles and presence in literary works is essential, especially as they represent the second half of human life, without whom life would be incomplete. Women accompany men everywhere—even mentioned in the Qur'an, the Prophet's Sunnah, and in the lives of scholars and preachers.

Therefore, the author felt it necessary to research this topic through the travel writings of Sheikh Mohammed bin Nasser Al ،Aboudi.

Keywords: The Arab Journey, Mohammed Al ،Aboudi, The Early Explorers, Women in travels, The Other Among Nation.

تمهيد:

إن مطالعة نماذج الرحلة العربية تدل دلالة واضحة على أن العرب لم يقفلوا باب علم أو أدب من العلوم والآداب إلا طرقوه..

فقد جاب الرحالة الأراضي خدمة للعلم والدين والأهداف المتنوعة الأخرى كالاقتصادية والثقافية والجغرافية، وذلك إضافة إلى الهدف الرئيس الذي جاء من أجله الإسلام والدين ألا وهو نشر الإسلام.

الرحلة في الأدب العربي:

ومن يتتبع مسيرة الرحلة وأدبها في التراث العربي، يجد أن كتب الرحالة حوت مادة ثرية ومثيرة ومدهشة في التراث الفني، وقدمت إسهامات بالغة القيمة في حقول

العلوم والآداب المختلفة، وساهمت في خدمة الإسلام واللغة العربية، حتى أصبحت كتب الرحلات تحوي فن القص، والعجائب والغرائب والثقافات المختلفة والمتنوعة؛ مما جعل القيمة الأدبية للرحلات تتجلى في الأسلوب الفني، والذي يميز أدب الرحلة عن طريق السرد القصصي والحوار والوصف والأسلوب السهل وغيرها من الوسائل الفنية التي تسعها الرحلة، والبعيدة كل البعد عن أسلوب التكلف..

وقد كانت للعرب قبل الإسلام رحلات تجارية مزدهرة خاصة مع العراق والشام واليمن، وإن لم تدون أخبار هذه الرحلات تدوينا خاصا شاملا، إلا ما ورد متناثرا في قصائد الشعر وكتب اللغة..

وحين دخل الإسلام تنوعت أهداف الرحلات وتعددت تحقيقا لدعوة الله، وسير الأنبياء والدعاة إلى الله والإسلام، والحج ثم الفتوحات الإسلامية والاقتصادية، وغيرها من أهداف الرحلة المتعددة..

"والرحلات العربية من قبل القرن الثالث الهجري والتاسع الميلادي كانت رحلات تعد تراثا رائعا شهدت به الأوساط العلمية في كافة دول العالم، وقضى المستشرقون الغربيون السنوات؛ لتحقيق ودراسة بعض ما وضع هؤلاء الرحالة العظام، ولا يزال كثير من مخطوطات أعمالهم الثمينة مفقودا لم يعثر له على أثر، أما ما عثر عليه المستشرقون، فما زال أكثره رهين أدراج مكتبات العالم مخطوطا يفتقر إلى التحقيق".⁽¹⁾

ومن المؤسف أن هذه المخطوطات في الاسكوريال ومكتبة فينا والفايتيكان والمتحف البريطاني، ومكتبة أسطنبول وليدن وهامبروج، وباريس والأكاديمية التاريخية بمدريد وغيرها..

ولا يوجد عندنا نحن العرب منها شيئاً، وإن كان بعض منها محفوظاً في بعض المكتبات العربية إلا إن الدارسين عنها غافلون.

ومن القرن الثالث الهجري وحتى القرن الثامن الهجري ازدادت المؤلفات عن الرحلات العربية، وذلك لكثرة الرحالة العرب في تلك الفترة، حتى ختمت برحلات ابن خلدون.

وكانت قبله رحلات ابن بطوطة أشهر الرحالة العرب على الإطلاق.

ولما كانت الرحلة العربية وآدابها إحدى مزايا الحضارة العربية، فقد تعلق في القرنين التاسع والعاشر الهجريين وتوقفت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين إلا ما ندر من الرحلات والمؤلفات البسيطة.

ثم عادت الرحلة العربية للازدهار من جديد في ثوب مختلف مع السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وتحديدًا بعد الحملة الفرنسية على مصر، وقد بدأها التونسي عام 1903م برحلة إلى بلاد العرب والسودان وضمنها كتابه (تشحيد الأذهان برحلة إلى بلاد العرب والسودان) وتلاها الطهطاوي برحلته الشهيرة ومؤلفه الكبير (تلخيص الإبريز) كبداية للرحلات في العصر الحديث..

وكل ما سبق من الرحلات العربية تدل دلالة واضحة على أن أدب الرحلة يحمل بين طياته نصوصاً باهرة قادرة على نقل طبيعة التدايعات والانطباعات والأفكار التي حملها العرب عن البلاد التي ارتحلوا إليها، وعن الآخر الذي تعرفوا عليه، وهي حقيقة تدل على المستوى الثقافي الذي حمله العرب من خلال إحساسهم بذاتهم وتعرفهم وانفتاحهم على الآخر..

ومن أجل ذلك استحققت الرحلة أن تكون أدبا كما يقول محمود حسين: "إن أدب الرحلة فيه من الأساليب التي ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني، مع الابتعاد عن الأسلوب الأكاديمي الجاف والمادة التجريبية، إذ يتنوع الأسلوب فيها من السرد القصصي إلى الحوار والوصف".⁽²⁾

وأهمية الرحلات لاتنبع من كونها مصادر تاريخية وجغرافية واجتماعية، وإنما تنبع من فنيته ولغتها، ولذلك كان حرصنا للوقوف على هذا الفن، وقيمه الجمالية عند أدبائنا.

وقد اخترت للدراسة التعريف برحال سعودي، لرحلاته قيمة في مؤلفات أدب الرحلات، واخترت دراسة ظاهرة من ظواهر أدبه وهي ظاهرة المرأة في الرحلة، وكيف تناول الرحالة قضاياها في رحلاته.

سيرة الشيخ محمد بن ناصر العبودي:

1، اسمه ومولده:

هو محمد بن ناصر بن عبدالرحمن بن عبد الكريم بن عبدالله بن محمد بن عبود، وكانت أسرته إلى عهد قريب يعرفون بالعبود، ثم أضيفت الياء في عهد جده الأقرب عبد الرحمن..

والدته هي نورة بنت موسى بن عبدالله العضيبي، قارئة للقرآن، وللكتب.

كانت ولادته في 30 ربيع الآخر سنة 1345هـ.

2، نشأته وصفاته:

نشأ في جو علمي من نعومة أظفاره في الكتاتيب، وتتلמד على يد مشايخ كبار، له من الصفات الحسنة جلها، فهو ذو جدية واضحة في شخصيته وحديثه، وهمة عالية دعته إلى تخطي الصعاب حتى وطئت قدماه حواضر الأمم.

أحب العلم وبذل له من حياته الكثير، حتى عرف اسمه القريب والبعيد، ولا تكتمل هذه الصفات إلا لصاحب خلق حسن وهذا ما عرف عنه، حتى صدق فيه قول الشاعر:

إذا كسب الناس المعالي بالندی فإنك تعطي في نداك المعاليا

عمل لوطنه وأمته كثيرا فتقلد وظائف للدولة من بداية حياته العملية، تدرج في وظائف التربية والتعليم، فبدأ مدرسا للعلوم الدينية في المدرسة الأولى ببريدة، ثم مديرا لمدرسة المنصورية، ثم عين مديرا للمعهد العلمي في بريدة عام 1371هـ، تزكية من الشيخ عبد الله بن حميد..

وفي عام 1380 ونظرا لما تميز به من جهد في العمل التربوي الإسلامي، نقل إلى وظيفة الأمين العام للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان من المؤسسين لها، ثم عين وكيلا للجامعة لمدة سنة واحدة، ثم عين بعدها عام 1394هـ أمينا عاما للدعوة الإسلامية برتبة وكيل وزارة، ثم اختير في عام 1413هـ أمينا عاما مساعدا لرابطة العالم الإسلامي، فكانت رابطة العالم الإسلامي بداية ليكون الشيخ عميد الرحالين في المملكة العربية السعودية، ومن الداعين إلى الله في بقاع الأرض.⁽³⁾

3، بداية رحلاته:

الشيخ مُحمَّد بن ناصر العبودي، شيخ الرحالين في الجزيرة العربية منذ عام 1371هـ إلى عامنا الحالي، ولم تكن رحلته فقط بسبب مهنته، وإنما كانت بدايته ومصاحبته للعلماء، وطلبة العلم، وكانت هذه بداية الرحلات

فقد عاش في القصيم مصاحباً للشيخ بن حميد وبدأ ينتقل من بريدة إلى الرياض أيام حكم الملك عبد العزيز وسعود وفيصل وذلك بصحبة الشيخ بن حميد ..

وكانت أول رحلة داخلية للشيخ بإرسال قضاة من القصيم إلى الحجاز وكان العبودي من ملك الهيئة أودعها في كتابة (رحلات في البيت) يقول العبودي: وقد حملني على تخصيص كتاب عن الرحلات داخل المملكة في تلك الفترة القديمة قيدت مذكرات يومية عنها في حينها.

وكوني زرت بعد ذلك جميع أنحاء العالم بدون استثناء، وكتبت عن ذلك كتباً كثيرة لا يكاد يصد من بعدها الأمنراها وهو 116 كتاباً بعضها كبير والقليل منها صغير، وقد طبع منها حتى كتابة هذه السطور 112 كتاباً مما جعلني أكثر من كتب في الرحلات باللغة العربية منذ أن بدأت الكتابة بالعربية حتى الآن".⁽⁴⁾

أما بداية رحلته الخارجية فقد كانت مهمة رسمية للجامعة الإسلامية إلى إفريقيا في الثمانينات الهجرية، وقد كانت تلك الرحلة بداية انطلاقته الأولى نحو جولاته التي قادته كثير من بقاع الأرض ومفتاحه إلى العالمية فيما كتبت عن الرحلات، حتى امتدت قدماه إلى مواقع مغمورة، وأخرى خطيرة موبوءة، لكنه

يسافر لأهدافه، وبحثاً وراء مقاصده لذا فإنه يستسهل الصمت، حتى اقترن اسمه بالرحلات وأعلامها ورموزها الأوائل بدءاً من ابن بطوطة وابن جبير وغيرهم ...

وكانت لرحلات العبودي سمة خاصة تميزه عن غيره، فقد استطاع تقديم منهجية جديدة في تدوين الرحلة ألا وهي هدفه الرئيس من كل رحلاته وهو تفقد أحوال المسلمين في البلدان، والمروء على المشاهدات العامة والخاصة كافة ..

والعبودي زار بقاعاً مختلفة من الأرض، لم يمر عليها كثير من الرحالة العرب ولم يصل إليها قبله أي مسلم.

ويؤكد ذلك كما ذكر النتاج الضخم الذي ألفه وأفاد به المكتبات فيما يخص أدب الرحلة.

كما تميزت رحلات العبودي بملكات أدبية وروح البحث والفضول العلمي الذي يلحظ من خلال تعمقه في رحلاته بأسلوب يبين بحثه عن تفاصيل دقيقه جداً في الرحلة، يشوبها في بعض الأحيان روح الفكاهة، كما يميزها الوصف الجميل لبعض المشاهد، والتمحيص والتدقيق والاستعانة بالخلفيات التاريخية والفكرية الواضحة في رحلاته والتي يميزها الحس الإسلامي والذوق الأدبي الرفيع .

وقد اهتم العبودي بتدوين رحلاته بنفسه لا بطريقة الرحالة الأوائل الذين يجعلون لهم كاتباً للرحلة، كما أن طبيعة العبودي المهنية فرضت عليه الوقوف على أحوال المسلمين في البلاد التي يزورها، هذا المنصب الرسمي الذي كلف به العبودي، جعل لرحلاته طبيعة خاصة، وكأنها تقارير رسمية تبين أحوال المسلمين في بقاع مختلفة من الأرض، وفيها مواعيد يحددها مع كبار شخصيات البلد، ولذا فإن

رحلاته ذات هدف ديني واضح، ولما كان الغرض الديني هو الهدف من هذه الرحلات، فقد لاءم الرحالة كتاباته مع هذا الغرض، وظهر الحس الإسلامي مسيطراً على كتاباته، فلا تجد وقفاته في الرحلات إما على مراكز إسلامية، أو مساجد، أو دعوة إلى الله.

كما شملت رؤاه القضايا الإنسانية التي لا تتعارض مع الرؤية الإسلامية وكانت لتلك الرحلات التي جابها العبودي لخدمة الإسلام والمسلمين صدى واضحاً في نشر الإسلام وبقاء المراكز الإسلامية التي سعت بلادنا لنشرها في بلاد المسلمين، هذه الثقافة أكسبت العبودي، وأكسبنا بها العبودي تاريخ جليل؛ لكل مركز وبلد إسلامي..

يقول عن أحد مهماته في الهند: "الهدف من هذه الزيارة الاشتراك في الندوة التي تقيمها رابطة العالم الإسلامي تحت عنوان (أدب الدعوة والإصلاح) ومقرها مهم كموضوعها لأنها ستقام في مدينة (بھوبال) عاصمة الأمير العالم الجليل صديق حسن خان، وكان لعلمه وعمله بعلمه يفد اليه العلماء من سائر بلاد المسلمين، ويرحلون إلى بلدة (بھوبال) للتعلم والافتداء بسير علماء الهند العظام".⁽⁵⁾

وتلك الثقافة التي جمعها العبودي عن أسماء الأعلام والأماكن في كل بلد تكسب القارئ لرحلاته علماً بالأعلام من الشخصيات والأماكن وتاريخها حتى إنك تجد معلومات معاصرة قد لا تجدها في كتب في الأعلام القديمة.

فقد بحث في معجم البلدان⁽⁶⁾ ولم أجد كثيراً من تلك المعالم التي ذكرت، دلالة على أن أدب الرحلات فيه الكثير من المعلومات التي استطاع الكاتب

إضافتها، خاصة وأن العبودي حين يتحدث عن رحلته لبلد ما يتحدث عن كل ما تشتمل عليه البلاد من معلومات متنوعة، فلم يكتف مثلاً بذكر (بهبال) كمركز للدعوة، وإنما أخذ يعرف بسكانها وجوها، ومن يسكنها قديماً، ومن حكمها من الخلفاء، ومن كتب عن هذه البلد وعرف عنها.. يقول: "(بهبال) بهوبال ليست استوائية، بل هي بعيدة جداً عن المناطق الاستوائية كما هو ظاهر.

قال السيد عبد الحي الحسني: "بهبال، بضم الباء الفارسية، وسكون الهاء والواو، وفتح الباء الهندية: بلدة كبيرة ذات أسواق وجوامع وحدائق، يسكن بها أمير تلك الناحية، وقال فيه مولانا صديق حسن القنوجي:

وصلت حمى (بهبال) ربا نفسي فانزلي فقد نلت مأموا الفؤاد المعول⁽⁷⁾

إن الوقوف على مؤلفات العبودي في الرحلات تجعله كفيلاً بأن يكون الرحال السعودي الإسلامي المعاصر الأول في الرحلة والتأليف لخدمة الإسلام والمسلمين، حيث إنه زار أقطار المعمورة من شرقها لغربها ومن شمالها لجنوبها، جميع القارات والأقطار.

وجعل لرحلاته سيرة ذاتية له، كما هي قصص لأحداث ومواقف مرت به. "فالرحلة عموماً هي من أولى الأشكال التعبيرية التي استعملت فيها الكتابة بضمير الأننا دون تخرج، ومن الأشكال التي تطرح فيها باستمرار صورة الآخر.

وحقيقة النص الرحلي عموماً، ورحلات العبودي موضع الدراسة خصوصاً، ارتبط النص الرحلي فيها بالسيرة والترجمة والتاريخ والجغرافيا والسجل الاجتماعي والحكي والشعر والرسالة واليوميات".⁽⁸⁾

وقد اتصفت أغلبية الرحلات بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل المشاهدات بأمانة وصدق، وتختلف درجة الصدق والنقل من رحلة لآخر بدرجات متفاوتة، ولكن العبودي يركز عليها؛ لذا تجد طابع التقريرية غالبا على رحلاته، خاصة وأنه ينقل أعدادا، وإحصائيات دقيقة من بلده إلى البلد الآخر والعكس؛ لذا فإن طابع الدقة في نقل المعلومات واضح جدا في رحلاته.

ولو توقفنا عند قول الكثيرين بأن العبودي من أوائل الرحالة السعوديين وأشهرهم؛ لوجدنا في ذلك الصواب؛ وذلك للأسباب التي ذكرنا بعضها من كثرة المؤلفات والرحلات، وزيارته لبلاد لم يصل إليها غيره، ولكن أضيف بأن العبودي منذ مطلع حياته وهو مرتبط بالشخصيات ذات المكانة في بلادنا كالشيخ عبد الله بن حميد، وكان صاحبه الدائم الذي بدأ حياته ورحلاته معه، وهذا حقيقة كفيل بأن يجعل العبودي شخصية مميزة. يقول: "رحلت مع شيخنا الشيخ عبد الله بن حميد أكثر من مرة، وكان في كل المرات يطلب مني أن أرافقه في الرحلة التي تكون من بريدة إلى مدينة أخرى، ولكن أهم رحلة أسميتها (رحلة الرحلات) إذ كانت إلى عدة مدن بعيدة آنذاك عن بريدة وهي مكة وجدة والطائف والمدينة المنورة.

وكان وقتها طويلا استغرق بالنسبة إلي نحو من تسعة أشهر، وكانت رحلة حافلة بالغرائب بالنسبة إلي أنا الشاب آنذاك الذي يتطلع إلى معرفة كل ما يحيط به فضلا عما يواجهه من أمور أو يتفرس في قسمات وجوه أناس كانوا يعتبرون من الأجانب عنه، وهي إلى ذلك رحلة عمل.

وشيء مهم آخر وهي أنها أتاحت لي رؤية أكبر الأشخاص في بلادنا ابتداء من الملك البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود مؤسس المملكة العربية السعودية إلى رؤية أبنائه وبعض أحفاده، كما أتاحت لي الجلوس بل تكرار الجلوس مع كافة علماء المملكة المعروفين آنذاك، ابتداء من الشيخ عبدالله بن حسن رئيس القضاء إلى عشرات من العلماء والقضاة والمدرسين وغيرهم.

وهي أطول رحلة رحلتها في حياتي حتى الآن إذا استمرت من النصف الأول من صفر إلى شوال عام 1372هـ.

ومن تيسير الله أن قيدت فيها أو في بعض أيامها مذكرات يومية لم أكن ألقي لها بالا عندما كتبتها ولا عندما فرغت من كتابتها، ولكني الآن أجدها مهمة عندي، لأنها مضت عليها نحو من ستين سنة، وأصبحت الأحداث التي حدثت فيها جزءا من التاريخ، وأصبح الأشخاص المذكورون فيها شخصيات تاريخية يتلمس الناس أخبارها تلمسا ويبحثون عنها حتى في الروايات الشفهية التي قلت وتلاشت من ذاكرة أهل البلاد؛ لأن الذين عاصروها ذابوا في خضم الأيام وأكلت الأرض عظامهم، كما أكل النسيان أخبارهم وربما آثارهم أيضا".⁽⁹⁾

لهذا كانت الرحلة مهمة في الأدب والتاريخ، وكان الرحال باستطاعته أن يهدي القارئ معلومات قيمة.

أما عن قضية المرأة فكانت ولا زالت من القضايا التي شغل بها بعض الرحالة السعوديين، وتوقفوا أمامها، وهم في ذلك يذكرون الباحث بالشعراء القدماء ووقوفهم على الأطلال مع اختلاف الزمن والمناسبة، ولا يقتصر الحديث عن المرأة

حديثا فيما يخص أمور هذا العصر كخروجها وعملها، بل يتجاوز ذلك إلى الحديث عن جمالها وأنوثتها وخصائصها، إذ يفلسف العبودي النظر للنساء فيقول: "في البلاد الأوربية التي تطلق للمرأة حريتها في الدخول والخروج والتجول والعمل في أكثر بلدان العالم؛ لا بد للسائق أن يطلق هو عينه فيها، ذلك بأنه يفعل من كونه ذكرا يرى أنثى في الشارع".⁽¹⁰⁾

على أن العبودي في حديثه عن المرأة هو وأغلب الرحالة السعوديين كان حديثا بريئا لا يחדش الحياء، وهم في ذلك لا يتعدون عن الشعراء الحالمين الذين يأسرهم الجمال، ويستهوهم الوجه الحسن.

ثم إنه حين يتحدث عن امرأة يتحدث عنها مروراً سريعاً لا يقف عنده كثيراً سوى أنها وجهة نظره عن هذه البلاد، وكون أن المرأة موجودة في هذه البلد فليس له كرجل أن يرسم صورتها.. يقول عن صورة عابرة مر بها من صور المرأة التايلندية فقال: "يرى الغريب في هذه الأحياء الشعبية حوانيت أو بسطات لبيع المأكولات الشعبية، وأكثر العاملين فيها من النساء.

بل إن النساء يعملن في هذه الأحياء الشعبية كما تعمل النساء في الأحياء المسماة بالراقية، وجود المطاعم أو المأكول، بمعنى مكان الأكل، بكثرة يدل على الحقيقة الموجودة في تايلند، وهي أن المرأة تقضي معظم وقتها خارج المنزل في العمل؛ لذلك يكثر شراء الأكل من هذه الحوانيت".⁽¹¹⁾

ومظهر عمل المرأة شد انتباهه في أكثر من مكان في تايلند وحدها، حيث نراه في أكثر من مرة يقول: "كان أول منظر لفت انتباهي قبل الركوب هو منظر

متكرر، وهو وجود بائعا الأرز والأطعمة الخفيفة في الأزقة والشوارع الضيقة المتفرعة من الشوارع الكبيرة حتى في هذا الوسط التجاري، وكل الذين يبيعون هذه الأشياء من النساء، وقد رأيت اليوم امرأة تطبخ طعاما لا أدري ما هو في قدر كبير على الرصيف، وتبيع فيه للمشتريين".⁽¹²⁾

وقد سبق للعبودي طباعة ونشر كتاب (معجم المرأة في المأثور الشعبي) حيث ذكر أوصافا حسية ومعنوية للمرأة انطلاقا من قيمة العلم، مهما ظن البعض أن الواجب عدم ذكرها.

ومن خلال وقوفنا على بعض المباحث كقضايا المرأة، وعلاقتها بالرجل أو صورتها، أو مقاييس الجمال عندها، أو مكانها في مجتمعها.. فإننا نقف على موضوعات نحتاج ويحتاج أن يعرفها من يدرس موضوع المرأة. وهي من الأهمية بمكان الوقوف عندها وتحليل مدى تطبيقها في الدراسة عن المرأة.

المرأة عند العبودي:

لا يخلو مؤلف من مؤلفات العبودي في الرحلات من ذكر المرأة، مما جعلني أقف على صورة المرأة عنده، واخترت كتابين من رحلات الشرق، وكتابين في رحلات الغرب، وذلك كصورة للمرأة الشرقية، وأخرى للمرأة الغربية.

المبحث الأول: صورة المرأة في رحلات العبودي.

ولقد تعددت صور المرأة في رحلات العبودي تعددا يعود إلى طبائع وعادات الشعوب وثقافتهم في تعاملهم مع المرأة.

فتارة نجد المرأة مكرومة في بلاد المسلمين، وتارة نجدها ذات صورة مبتذلة في بلاد الغرب، وهلم جرا من وصف صور المرأة عند العبودي.

وما أستطيع تحديده من خلال هذه الدراسة التي لم أقف فيها على مجمل مؤلفات الشيخ واكتفيت بأربعة منها⁽¹³⁾.

وجدت أن المرأة في رحلات العبودي حظيت بدقة ملاحظة من الشيخ، وعناية تصويرها، والوقوف عنده كثيرا، علما بأن زيارته رسمية إلا إنك تجدها في مواضع كثيرة من رحلاته، بينما تجد صورتها تقل عند كثير من الرحالة.

فلو وقفنا عند رحلته إلى أندونيسيا مثلا، وجدنا فيها حضور المرأة الأندونيسية المسلمة الداعية، ووجدنا المرأة موظفة في الجوازات، ووجدناها في الاستقبال، كما وجدنا لها صورة في حضور المؤتمرات.

يقول في وصف حفل حضره: "الاستقبال الرقيق: وليس مصدر رفته هو انخفاض الصوت الذي رافقه، ولكن هو أنهم يدرّبون الشبان والطالبات تدريبا رياضيا، وعندما أقبلت على مكان الحفل وسمعت صوت الدفوف والموسيقى لأداء النشيد الاندونيسي (مردیکا) أي الحرية، وفوجئت بالفتيات اللاتي بين الخامسة عشرة والعشرين، وهن يسرن، فسألت مرافقي عنهن فقال: "إنهن من معهد سعادة الدارين"⁽¹⁴⁾ وتبع هذا الاستقبال الغليظ في الأذن، الرقيق في العين والنفس استقبال آخر رقيق في كل أولئك، وهو أنهم جعلوا الذين يستقبلون القادمين من النساء الرقيقات المترينات، ولكنهن غير متبرجات إلا بزينة، فأجسادهن مستورة وإن كن يرتدين أكثر الملابس والأحذية أناقة.

فيستقبلن القادم بابتسامة فيها فقر، وانحناءة فيها أدب، ولا يضافحن أو يتكلمن معه، واللافت للنظر في أمر جلوس النساء أنهن لم يكن منفصلات في الجلوس تماما عن الرجال، بل هن مختلطات معهم، إلا أن هذا الاختلاط في الجلوس ليس كالاختلاط في أوربا مثلاً حيث يتعمدون أن يكون مجلس الرجل بجانب امرأة وبالعكس، وهناك نساء ليس عليهن من مظهر العاملات في المدارس الإسلامية شيء، فلا غطاء على الرأس، ولا ثياب طويلة، والسبب في ذلك أنهن من المدعوات للاحتفال.

والذي يظهر في هذه الصورة وقوف العبودي عند وصف المرأة باستغراق لم نجد مثله في وصف الفتيان، ركز على لباسهن، مشيتهن، تعاملهن، وذلك تجده عند وصف نساء كل بلد في مثل هذه الصورة لنسائهن..فمثلاً عندما وصل (بالي) وصف نسائهن قائلاً: "وأهم ما يميز أياهم أن نساءهم مررن ورؤسهن مكشوفة، بخلاف الولايات المسلمة التي كانت أزياء النساء فيما يؤلف غطاء الرأس جزءاً مهماً من اللباس، ويختلف من ولاية إلى أخرى.

ومن اللطيف في الأمر أن أربع نسوة من أهل بالي كن يسرن في مؤخرة النساء، وقد سترن رؤوسهن فذكروا أنهن يمثلن الأقلية المسلمة التي تعيش في بالي المذكورة.

والغطاء الذي على رؤوسهن هو مناديل بيض واسعة". (15)

ومن تشكلات صورة المرأة في رحلات العبودي:

صورتها من خلال رؤيته لها وتحليله لشخصيتها وشعوره نحوها من خلال معرفة أهلها وذلك للمرأة التي ركبت مع السائق أثناء زيارته لمسجد الاستقلال.. يقول: "وركب السائق وركبت معه فتاة المراسم الرقيقة المهيبة التي يدل تهذيبها وحيائها على أنها ربيبة بيت معلم، ولو لم يعرف المرء أنها من أسرة متعلمة، في المقعد الخلفي من السيارة، وقالت: إن والدها مسؤول في وزارة الخارجية، وأنها تعرف الانجليزية جيدا؛ لأن والدها كان ممثل إندونيسيا في هيئة الأمم المتحدة، وقد أقامت في نيويورك فترة ساعدتها على أن تجيد الانجليزية، وأن وزارة الخارجية قد اختارت عددا من الفتيات والرجال؛ ليكونوا في هيئة المراسم لأعضاء المؤتمر".⁽¹⁶⁾

صورة المرأة في مظهرها الخارجي عند العبودي:

في اللباس: يقول عنها في الهند: "لذلك يرى المرء وجود المسلمات ظاهرا في المدينة، ولا زلن متمسكات بغطاء أسود خفيف يوضع على الوجه".⁽¹⁷⁾

وهذه صورة من صور المرأة في لباسها، وهو كما يرى المرأة المسلمة المحتشمة يرى المرأة الغربية بصورة، أو بشكل آخر.

ووصفه للباس المضيفات تجده في أغلب الرحلات. حيث يركز على لباسهن كما في وصفه للمضيضة بزيها الهندي ولبسها للساري.

وكثيرا ما يركز الشيخ على المفارقات في موضوعات متنوعة، منها ما هو ذو أهمية، ومنها ما هو وصف للمشاعر كمشاعر الحب.. وقد يكون هذا الحب غير مباح، ويطرقة الأفراد في الطرقات.

يقول أثناء زيارته للبرتغال: "من المفارقات التي يلاحظها المرء ملاحظة عابرة ما بين أهل هذه البلاد وبين الأوروبيين الشماليين، أنه لا يرى هنا مظاهر الحب والعشق في الشوارع مثل التقبيل المبالغ فيه والاحتضان والمخاطرة الطويلة، فهذه لا توجد هنا إلا على ندرة وفي حدود ضيقة جدا". (18)

ثم يصور لباس المرأة البرتغالية كصورة من الصور الشكلية "وأما ألبسة النساء الفاضحة أو غير المحتشمة فإنها لا توجد أصلا، وربما كان السبب في هذا هو البرد الذي اضطرهن إلى ستر أجسادهن كلها غير أن البرد لا يمكن أن يضع بعض الأوربيات ساكنات البلدان الباردة.

من ذلك، إذ نرى الواحدة منهن قد سترن جسمها بلباس كثيف حتى إذا ما دخلت مطعما أو مشربا دافئا خلعتة فبان ما تحته مما يكون في مثل لباس النوم أو قريبا منه في بعض الأحيان". (19)

مكانة المرأة في المجتمع:

العبودي عاش في بلدة المملكة العربية السعودية بلد الإسلام، ورأى أن للمرأة مكانة مكانة خاصة مرموقة كرمها بها الإسلام ورجالاته وأهله، لذا فإن نظرة العبودي للمرأة انعكس على رؤيته لها في بلاد الرحلات. فيبحث عن مكانتها في كل بلد، وهل يحيط المجتمع الذي يعيشه من قدرها أو يرفعها، هكذا كانت نظرتة، ويرى أن العمل الذي تقوم به من مكانتها، فلا تعمل عملا يحيط من مكانتها وإنما هي في نظره لا بد أن تكون مكرمة.

ويرى تلك المكانة للمرأة برؤية أهل البلد المزور لها.. يتحدث عن مسجد الهند زاره. يقول: "اسمه كما كتب عليه (مسجد أم كلثوم جهان بيغم) ويقيم التي قد تكررت هنا معناها: سيدة غنية وذات مكان في الناس، وإن كان صار يطلق الآن على كثير من السيدات المسلمات". (20)

أما المرأة الأوربية فلها مكانة كبيرة أيضا في مجتمعتها، حيث يقول عن مكانة المرأة في فنلندا: "اسم رئيس جمهورية فنلندا في الوقت الحاضر (مادنو كرم بقسوم) وعلى ذكر المرأة التي تحرسه نشير إلى مكانة النساء الكبيرة في البلاد مثلها في ذلك سائر دول اسكندنافيا، ومن أقرب الأمثلة على ذلك أن وزيرة الدفاع في فنلندا اسمها (اليزابث رين) وهي مرشحة لرئاسة الجمهورية. ويقولون إن تربيتها بالنسبة إلى فرض شغل رئاسة الجمهور، وهي في المرتبة الثانية أو رقم (2) كما يعبر عن مثله بعضهم". (21)

وقد ركز العبودي على دعوة المرأة في البلاد الغربية، وفصل في ذكر أنشطة المرأة كداعية، كل هذا دلالة على أن للمرأة مكانة في مجتمعتها الإسلامي، لم ينس العبودي هذه المكانة في تلك البلاد، بل حاول جاهدا أن يبني مراكز النشاط المرأة الإسلامي حرصا على بيان أهميتها ومكانها في المجتمع.

ومن تلك الأدلة التي تعنى بنشاط المرأة ومكانتها في المجتمع، ذكره للأنشطة التي أعدها المركز الإسلامي في بلجيكا فتارة يجعل لها مكانا لحفظ القرآن الكريم وتحفيظه، وتارة يجعل لها مكانا خاصة لإقامة أنشطة إسلامية دعوية في تلك البلاد. يقول: "يمكننا القول ونحن واثقون: إن النشاط النسائي الإسلامي كان منعما بالمرّة

منذ افتتاح المركز الإسلامي إلى شهر مارس الماضي، ولم يدل على وجود هذا النشاط إلا لافتة علقت على قاعة فخمة كتب عليها قاعة السيدات، ومنذ المؤتمر الأول للمجلس وتثقيفها وربطها بالمسجد وانطلاقاً من هذا الواجب فإن المركز الإسلامي قد أعد مكاناً لا ثقاً بهن غير المكان الأول، وبدأن يترددن عليه، ونظم لهن برنامج اشتركن في وضعه وبدأت التجربة ونحن مستمرين في تطويرها، وقد أحدث فتح قاعة السيدات صدى طيباً لدى السيدات من أطراف بلجيكا مما جعلهن يتوافدن عليه ويطلبن فتح فروع مماثلة حيث يكثر تجمع المسلمات". (22)

ومكانة المرأة في رحلات العبودي تتخذ جانبين: إما المرأة المسلمة التي كرمها الإسلام وجعل لها رفعة بهذا الدين حيث تقوم بأنشطتها وأعمالها التي تخدم الدعوة، وهذه صورة للمرأة التي يركز عليها رجال إسلامي مثل العبودي، والصورة أو الجانب الثاني لمكانة المرأة عنده هي: المكانة التي وضعها لها مجتمعها في بلادها، ولا كرامة حقيقية إلا بالإسلام، أو باحترام المرأة لنفسها دون أن تجعل من نفسها سلعة للتصدير.. كما ذكر في رحلته إلى تايلند، وكما نظر لها أهل تايلند أنفسهم، ذكر ذلك بعنوان: "ألا يوجد غير المرأة للتصدير؟ هكذا تقول لافتة كبيرة عليها صورة امرأة جميلة، عليها ثياب التجميل وتحتها عبارة قصيرة بالانجليزية، وأخرى طويلة بالتايلندية، وهي على شكل الإعلان الذي يلصق في الشوارع، ومعناه استنكار الطلبة الجامعيين لحركة تصدير النساء التايلنديات إلى الخارج للعمل في محلات التدليك والخدمات، ويستنكر الطلبة متسائلين ألا يوجد ما تستطيع تايلند أن تصدره من السلع غير النساء". (23)

هذه صورة أخرى لمكانة المرأة في بعض المجتمعات عند العبودي، وهذه النظرة منصفة، ولم يكن له في رحلاته ذكر لصور مختلفة عن مكانة المرأة عدا بعض الصور التي ذكرت، أو أنها وسيلة ليست للعمل، وقد يذكرها عاملة في أعمال مختلفة كمضيفة أو في استقبال أوجازات أو مزرعة أو في العسكر وكلها أيضا من صور مكانة المرأة في بعض من المجتمعات التي ارتحل إليها الشيخ، كذلك نراه يصور كثيرا من النساء اللاتي هن مكانة في المجتمع ويعنون بالإسلام عناية كبيرة. كما ذكر من الشخصية البولندية السيدة (جنة) الشخصية ذات المكانة الكبيرة والتي تهتم بالإسلام وتحبه.⁽²⁴⁾

من قضايا المرأة:

من قضايا المرأة الهامة التي تطرق لها العبودي في رحلاته:

أولا: قضية الدعوة إلى الله:

عني عناية شديدة بهذه القضية حيث إن رحلاته كانت لأجل نصرة الدعوة إليه، فهو حين يدعو لا بد أن يركز على دعوة المرأة، وإيمان المرأة أو دخولها للإسلام إيذانا بدخول أفراد الأسرة كلها؛ لأنها أساس الأسرة.

يقول عن المرأة الفنلندية: "من نشاطات الرابطة أيضا الاهتمام بتدريس الأخوات المسلمات، حيث يقام درس أسبوعي يوم السبت ويستمر ساعتين، ويعطي الدرس باللغتين العربية والفنلندية وتحضر الدرس بالإضافة إلى الأخوات العربيات مجموعة من النساء الفنلنديات الراغبات في التعرف على الإسلام، ومن

فضل الله فقد أسلمت في الشهور الأخيرة ما يقارب عشرون أختا، وهن الآن يشكلن نواة في الدعوة الإسلامية وخاصة للنساء الفنلنديات". (25)

ثانيا: تربية المرأة في بلاد الغرب.

ومن القضايا التي تحدث عنها في رحلاته الرسمية في الدعوة إلى الله زيادة أعداد المسلمات في بلاد الغرب وكيف يحق لهن تربية إسلامية في بلاد الكفر، فقد وقف العبودي عند هذه القضية في كثير من رحلاته ومؤلفاته باحثا في الرحلة ذاتها عن حلول لمثل هذه القضية، فحين تحدث عن الإسلام في هولندا وعدد المسلمين الذين هاجروا إلى تلك البلاد..

يقول: "ونظرا لالتحاق عدد كبير من الزوجات والأبناء بأزواجهن وبآبائهن في المهجر خلال السنوات العشر المنصرمة فقد تزايدت نسبة الأطفال والشباب، وهكذا أصبحت الجالية المسلمة في هولندا تتكون أيضا من عدة أجيال وتتميز بفتوتها". (26)

ثالثا: القاذورات البشرية

من القضايا التي أفرد العبودي فيها الحديث، قضية من القضايا يقف عندها الرجال المسلم؛ لينقل صورتها السيئة في مجتمعات الغرب أو الشرق، وذلك بهدف ابتعاد المسافرين لتلك البلاد عن مثل هذه السلوكيات، والتي يكون أكثر المتضررين منها هي المرأة، ولكنه نقل صورتها من وجهة نظر أهل البلاد في كيفية قبولهم لهذه العادات أو رفضهم لها، وكان حديثه عن تلك العادات مستفيضا في رحلته إلى هولندا. حيث يقول: "لولا أن هذه القاذورات التي سيتكلم عنها الآن تمارس هنا

باسم الحرية الشخصية التي جاءت بها المدينة الغربية وبالغت فيها لما كان هذا العنوان دقيقا، و لو كان أولى به أن يكون (قاذورات البشرية) أو نحو ذلك..

قال لي الأخ عبد الله: "سأوريك كيف يضيع بعض أبناء المسلمين، بل وبناتهم في هذا الجو الغربي المنحل، وأرجو أن تقتنع من وجوب السرعة في توفير المعاهد الإسلامية، ودور التربية لأبناء المسلمين، إذا شاهدت ذلك..

فهذه الأماكن التي سندهب إليها هي مبادل هولندا، ولكن طائفة من الذين يمارسون هذه المبادل هم من أبناء المسلمين مع الأسف". (27)

وقد أفاض العبودي في وصف امتهان المرأة في العري كقضية منتشرة في أوروبا وهي عدم احترام المرأة مما يجعلها تعيش مهانة تبتذل نفسها مع الحيوان "كيف لا امرأة تسمح لنفسها أن يقاربها حيوان، وكل ذلك مع نساء بيض أورييات عليهن مظاهر الترف والغنى مما جعلني أتيقن من أن الإنسان إذا خلا قلبه من الإيمان، ولم يكن مربى تربية مستقيمة فإنه ينزل إلى رتبة أدنى من رتبة الحيوان". (28)

ومن قضايا المرأة التي وقف عندها العبودي. رابعا: عمل المرأة يقول عن بعض من الوظائف التي تمتهنها المرأة في الهند. يقول: "وفي قرية بهوبال مررنا بطائفة من النساء يعملن في رصف الطريق العام، ويعملن وحدهن دون أن يكون معهن عمال من الرجال، وينحصر عملهن بإحضار الحصى الصغار ورصه على وجه الأرض تهيئة لصب الإسفلت فوقه، وقد صورتهن على البعد لئلا يمتنعن إذا قربت منهن وهن يبطئن في عملهن، ويبدو من مظهرهن أنهن يتشاغلن في ذلك، وهذا غير

صحيح، ولكن المرض والهزال والضعف الجسدي الذي يبدو عليهن، هو الذي يحملهن على ذلك أو هو الذي حملني على أن أعتقد فيهن.

وأجرة الواحدة منهن أقل قليلا من أجرة الجل فهي تتقاضى ما بين 15، 20 روبية، أي ما يساوي نصف دولار... أي ما يساوي ريالين سعوديين في اليوم".⁽²⁹⁾

هذه صورة من صور المرأة التي تعيشها في بعض بلاد العالم، وهذه القضايا التي وقف عليها العبودي فقط في حديثه عن المرأة في البلاد الأخرى.

علاقة المرأة بالرجل:

اختلفت صور علاقة المرأة بالرجل عند العبودي حسب اختلاف الشعوب، واختلاف عاداتهم وتقاليدهم.

وهو يصور تلك العلاقة بأشكال مختلفة منها:

علاقة المرأة بالرجل زوجا:

من الصور التي يذكرها العبودي في رحلاته صورة تعامل المرأة في أسرتها حسب الشعوب المختلفة، ففي رحلته إلى فنلندا يقول وهو يتحدث عن طبائع أهلها في تعامل الرجل مع زوجته: "إن الرجال في تلك البلاد أكثر حياء من النساء وهذا من المنطق المعكوس، وربما كان السبب في ذلك أن الترحيب بإقدام النساء على محادثة الرجال والعمل معهم في هذا المجتمع المفتوح هو بسبب قلة حيائهن، على أنهن ييقين أكثر حياء من سائر نساء شبه الجزيرة الاسكندنافية، وهن أكثر نسائهن خدمة للرجل، وقياماً بحق الزوج، فبعد ذكر لنا أهل السويد أن المرأة

السويدية تريد من زوجها أن يخدمها في البيت حتى إذا عملت معه في المطبخ أو في شؤون البيت كان نصيب الرجل من ذلك العمل هو الأكثر والأشق.

أما المرأة الفنلندية فإنها تخدم زوجها، ولذلك يكثر زواج السويديين من الفنلنديات. واختلاف علاقة المرأة بالرجل باختلاف الشعوب وطبائعهم فأم سلطان من سلاطين الهند ورثت حضارة باقية من حضارات البلاد بسبب حفاظها على ملك أبنائها، وبهذه تكون علاقة حكمة الأم على أبنائها واستجابتهم لها دليل على حفاظ الأم على سلطان أولادها.

يقول العبوديين رحلته للهند: "الملك الذي لا يزول"، على ذكر (شاه جهان) نقول: إننا مررنا بمنأى جيد اسمه (تاج محل بهوبال) قد تأنقوا في بنائه وبالغوا في ذلك واسمه على اسم (تاج محل) المشهور في أقاليم دلهي، ولكنهم هنا أضافوه إلى بهوبال وهو الآن مقر لعدة دوائر حكومية.

ويقال: إن والدة السلطان (حميد الله خان) رأت فيما يرى النائم أن ملكهم سيزول، وأن هذا المبنى الذي بالغوا في بنائه وهو (تاج محل بهوبال) سيستلمه غيرهم. فلما انتبهت من نومها وفكرت في أمرها رأت أن تبني شيئاً لا يزول بمعنى أنه لا يتولى عليه الأعداء فيأخذونه منهم، ويصرفوه عن وجهه الذي أرادوا له". (30)

وسيرة هذه المرأة تبين علاقتها الوطيدة بزوجها حيث إنها ذات دين وصلاح تولت الحكم وهي مستترة ومن حسناتها أنها رضيت بالزواج من السيدة صديق حسن خان. وهو طالب عندما تزوجته، وليس من بيت ملك، وفوضت إليه أمور الدولة، فكان هو الذي يحكم فيها بما أمر الله به، بل كان من أهل الحديث". (31)

وكما هي صورة العلاقة الشريفة بين الزوجين في الهند نرى صورة العاشقين ماتا لأجل الحب، وهي قصة ابن أخت الوزير الذي أرادوا قتله وكانت له جارية يحبها فاستحضرها، وأطعمها التنبول وأطعمته، وعانقها مودعا، ثم طرح للفيلة، وسلخ جلده وملئ تبنا، فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار، خرجت بنفسها في بئر هنا لك تقرب من الموضوع الذي قتل فيه فوجدت ميتة من الغد، فأخرجت ودفن لحمه معها في قبر واحد، وسمي ذلك (قبر عاشقان) وتفسير ذلك بلسانهم (قبر العاشقين).⁽³²⁾

ويبدو أن العبودي استغل المشاهد التي يراها، والأهداف التي جاء من أجلها لتوظيف علاقة المرأة بالرجل، ولم ينظر إلى تلك القضايا من زوايا داخل الأسرة في البلد الذي يزوره وحسب ظني فإن الرحال لا يستطيع أن يركز إلا على ما يراه من مشاهدات، أو ما يحكى له من قصص تعرف ببعض الأماكن وهذا ما يبعده عن القرب من دور المرشد الاجتماعي، أو الواعظ الديني في الدخول حول مثل هذا الموضوع.

مقاييس الجمال:

العبودي رحال مسلم يحافظ في نظرتة للمرأة على القيم الدينية، ونظرة الشرع للمرأة، فهو حين يذكر المرأة في رحلته فإنه يذكرها دائما بصورة النصف الثاني للمجتمع الذي يشف عن نظرة احترام وتقدير في انتقائه لصورة المرأة في جميع البلدان التي سافر إليها..

وهو حين يصف الجمال في البلاد التي سافر إليها، وأعني مقاييس وصفه لجمال المرأة فإنه يذكر السمات العامة في شكل نساء كل بلد من البلد، فنساء

الشرق لمن سمات عامة تتفق أغلبهن فيها، ونساء الهند في جمالهن لمن سمات أخرى وكذلك نساء أوروبا.

وهو حين يتحدث عن مقاييس الجمال يذكرها في كل بلد... فمثلا في رحلته لأندونيسيا خص بالذكر سمات الجمال عند المرأة الاندونيسية سواء من شكلها هي أو كما يراها هو، في نظرة مهذبة لا تخل بالحياء ولا تدل إلا على نظرة رجل يحترم المرأة في وصفها..

يقول: "بينما كان الناس يمرون من أمامي وكنت أتأمل تقاسيم وجوههم كنت أسأل نفسي: عن مقياس الجمال في الوجوه، حتى ظل السؤال في نفسي قائما: هل الجمال في وجه المرأة هو ما كانت فيه ملامح أهل البلدان العربية أكثر ظهورا أم ما كانت فيه الملامح الصينية أو القريبة من الصينية كالملاوية التي هي ملامحهم في هذه البلاد". (33)

وقد ذكر الفرق بين الجمال العربي والجمال الأندونيسي في العينين، والأنف، والشفيتين، والوجنتين، الوجه، واللون، كل هذه الصفات في مقاييس الجمال. و قد فصل فيها.

حيث يجمع في الوصف بين الجمالين: جمال الخلق والخلق، والخلق عنده بذكر سمات المرأة المسلمة المحافظة على دينها، وذلك مثل وصفه للمرأة النرويجية قائلا:

"ورأينا ونحن نغادر المدرسة القرآنية طائفة من الأخوات المسلمات وأكثرهن من البيضاوات قد أحضرن أطفالهن معهن إلى المدرسة في يوم العطلة، وهن وأطفالهن على غاية من نظافة الملابس والأبدان وفي جمال المظهر مع التستر والحياء". (34)

ثم يذكر واصفاً الجمال في النرويج كسمة عامة للمرأة، فقد تحدث عن الجمال في بلادهم عامة، ثم خص المرأة "والجمال الباهر في نسائهم قليل، ولولا البياض والشقرة لكان أقل من ذلك بكثير" والوصف الحسي الذي يصف فيه الأديب مقاييس الجمال وصف للمسكات العامة، إضافة إلى المقارنة بين النساء العربيات والأجنبيات. يقول في وصف نساء البرتغال: "أما النساء فإنهن تغلب عليهن البدانة والرشيقات فيهن قليل، وأما ألوانهن فإنها ألوان العربيات الشماليات كاللبنانيات، وإن كانت اللبانيات في نظر الناظر العربي أنضر من هؤلاء وجوهاً، وأندى بشرات، وأكثر رشاقة وملاحة". (35)

وقد حظي العبودي بدقة في رسم ملامح نساء كل بلدة على حدة، فلو جمعت آراؤه في وصف نساء كل بلد؛ لعدت سمات النساء في كثير من البلاد الإسلامية، فلو وقفنا عند صورة من صور وصفه للنساء البولنديات نراه يقول: "وكانت الدليلة وهي في العشرين من عمرها لطيفة الجسم كأكثر أهل البلاد في سنّها، جمّة الحياء، هادئة الطباع تتقدمنا وفي قدميها حذاء عصري تصعد به الأماكن المرتفعة وتنزل إلى المنخفضة وهي تلاقي من ذلك تعباً لم تبال به". (36)

اللغة ومستوياتها:

أسلوب العبودي في رحلاته مرتبط بمهمته، خاصة وأنه يدون رحلاته في وقتها، فلا تجد عنده إلا القليل من الجانب التصويري، وإن كانت لغته التقريرية سليمة لا تجد فيها هبوطاً، إلا إنه لا يخلو من الصور الجمالية المختلفة التي تدل على اطلاعه لكتب التراث الأدبي.

ولغة الرحلات شيء مميز ومختلف عن اللغة في أي فن أدبي، حيث تحوي ألفاظ أجنبية تدل على اللغة التي ارتحل إليها الشيخ، ومن مثل تلك الكلمات: أسماء التماثيل التي تدل على المرأة، وهذه التمثيل يصور ثقافة وفكرة البلد نفسه في هذا التمثال.

مثل (هايبس أمندا) وهذا تماثل لامرأة عارية قد أقاموه وسط بركة من الماء ذكروا أنه يرمز للأمومة الفنلندية، وقال لي بعضهم: إنه يرمز للأنوثة الفنلندية وجماها، ويقع في ميدان عام واسع". (37)

وقد يقف العبودي كلغة من لغات الرحلة على طريقة نطق مدينة من المدن في لغة أهل المدينة، فيعرف مثلاً بمدينة بهوبال الهندية. فيقول:

"بهوبال بضم الباء الفارسية، وسكون الهاء والواو، وفتح الباء الهندية، أقول: الهاء فيها ليست هاء واضحة وإنما تشبه الشهقة الخفيفة، ولذلك لا يلتقطها السامع من أفواههم في بعض الأحيان فيخيل إليه أنه بوبال بدون هاء".

ثم يبدأ بالترجمة الحرفية لاسم بعض شهيرات البلد فيقول: "واخترقنا شارعاً رئيسياً من شوارع بهوبال اسمه (سلطانة ورد) أي طريق سلطنة وسلطانة هذه هي (سلطانة شاه جهان) بيقم: من زوجها الأول قبل صديق حسن خان، والترجمة الحرفية لاسمها (سلطان جهان) وهذه ليست مراداً في الأصل، وإنما هو نقل لمعنى هذه التسمية مثل (شاه جهان) أي سلطان العالم". (38)

وهكذا تتميز لغة الرحلة بكثير من الترجمات التي تغني القارئ لها بعد غنى صاحب الرحلة من المعرفة باللغات.

وقد يقف الرحال عند لفظة تتكرر في البلاد ويعرف بتلك البلاد هذا المعنى لهذه اللفظة، وهذا حقيقة لا يوجد إلا في الرحلة؛ لأن فيها معرفة باللغات والعادات والتقاليد الأخرى. يقول العبودي عن لفظة الأم في مشهد (كوبير مايا) أي الأم كوبير، ولم يدل بتفصيلات أخرى عن حياة هذه الأم، ومن ذلك أنني عندما كنت في قارب في نهر (الكنج) الذي تقع عليه مدينة بنارس ويغتسل الهنود بمياهه في الصباح رأينا هندوكيا كهلا يبالغ في رش جسمه وتكرار غسله بماء هذا النهر المقدس عندهم.

ويقول لمن مضى (قا نقا مايا) أي إنه حي". (39)

اللغة التقريرية:

وبما أن العبودي الرحال الرسمي فإنه كان ينظر إلى المرأة في رحلاته وفي بعض الصور يمر عليها مروراً سريعاً حتى تبدو لغته في وصف المرأة وتصويرها لغة تقريرية أي ضمن حديثه عن الرحلة، أو كسر تقريره دون التصوير الشعوري. يقول في وصف فتاة استقبلته في إحدى رحلاته للسويد، وكانت في فندق: "أنزلنا أمتعنا؛ لنخرج من الفندق فوجدنا في مكتب الاستقبال فتاة سويدية ليست من جميلاتهم في مظهرها، ولكنها تكاد تذوب رقة في مجاملتها للنزلاء، ومن ذلك أنها ذكرت لي أن الأجرة المطلوبة في الغرفة هي مئة وخمسة دولارات، لأنهم في أيام العطلة الأسبوعية يخفضون الأجرة إلى النصف فأعطيتها مئة الدولار وصرت أبحث عن قطعة من النقود الأمريكية أو السويدية تساوي خمسة دولارات فأسرعت تقول لي: إنه لا حاجة لي إلى البحث فسنكتفي بالمائة.

كما أنني اخترت مناظر من المنطقة، كانت معروضة في الفندق فوهبتها لي هبة دون مقابل. واسمها مختصر مفيدة (يوالده) وإن كنت لا أعرف ماذا يعني في لغتهم إلا إنه يعني عندنا المجاملة والرقعة في المعاملة". (40)

وقد أفاد العبودي من الشعر إفادة واضحة تدلل على تعمقه في كتب الأدب والتراث، يقول عن فتاة شاهدها في رحلته إلى بلاد النرويج وفنلندا: "ولم نر أي موظف فيه إلا فتاة واحدة كانت تحضر في بعض الأحيان ليس من شأنها، وهي فتاة ممشوقة القوام، حاضرة الابتسام، جميلة الهندام، كأنما عناها بشار بن برد بقوله:

و حوراء المدامع من قصد تضيء الليل كالغرد الهجان
إذا قامت لحاجتها تثنت كأن عظامها من خيزران

والفرد الهجان: النجم المضيء المتفرد في السماء بإضاءته، إلا أن هذه الفتاة ليست حوراء المدامع، وإنما هي زرقاء المدامع، وهذا لا يعيها على لوها الأشقر". (41)

اللغة التصويرية:

استطاع العبودي أن يستخدم اللغة التصويرية لبعض المشاهد التي ينظر إليها في رحلاته، وإن كان كمبعوث رسمي دعوي لتلك البلاد فإنه يستخدم اللغة التقريرية دائما في الرحلة، ولكن تدعوه بعض المشاهد لاستخدام اللغة التصويرية كما هي في رحلته إلى هولندا، حيث استنكر صور استخدام المرأة للقضايا الأخلاقية ودلل

على ذلك تشبيهها بالحيوان. يقول: "أنثى الحيوان على سبيل المثال لا تمكن نفسها من ذكور الحيوانات الأخرى، وإنما تقتصر في ذلك على حيوان من نوعها، وربما كان ذلك من الفصيلة نفسها أو ما يقارب منها كالفرس والحصان.. وأما ما يبعد عنها فإن ذلك لا يكون منها فلا يكون الأمر بين البقرة والحصان، ولا بين الكلب والذئب مع أن الفرق بينها أقل من الفرق ما بين الإنسان وهذه الحيوانات وبخاصة الذئبة منها كالقردة والخنازير. وقد تفرقت نفسي وعلائي الكدر فأسرعت أغادر هذه المنطقة". (42)

ولا شك أن اللغة الوثائقية واضحة في رحلات العبودي، ففي كل رحلاته تجد صوراً يذكر من خلالها أنه تم توثيق هذه المعلومة من خلال الصورة. فيقول عن رحلته إلى بولندا التي يتبين فيها اللغة الوثائقية للعبودي، والصورة في هذه الصفحة خير شاهد: "عقب التصوير الذي لم ترض الأخوات المسلمات بأن يقتصر في صورة واحدة، وقد اختارت واحدة برزة منهن، و البرزة هي التي لا تستحي من أن تقول ما تستحي منه الأخريات، اختارت أن تلتقط لها صورة وهي بجانب رئيس الوفد وهي امرأة نصف في حدود الخامسة والثلاثين فلما امتنعت عن ذلك أمسكت بيدي فيما يشبه الإكراه.. وبررت ذلك بأن تبرجهن لا يمنعهن من ذلك وقالت إحداهن: "إنكم ترون أن فتياتنا المسلمات البولنديات جميلات فلم لا يختار كل واحد منكم واحدة منهن يتزوج بها، فاستغرق الجميع في الضحك لهذه الدعابة الخفيفة". (43)

الخاتمة:

الحمد لله رب العالمين، وبه سبحانه فهو العون والنصير، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحابه أجمعين. وبعد..

فإنني وقد كتبت عن الرحلة عند العبودي، الرحالة السعودي الذي عرف بنفسه قبل أن أعرف به، ولكن وقفت وقفة عند جانب من جوانب رحلته؛ لأن عناصر الرحلة عناصر غزيرة وعميقة للدراسة، فالرحلة كما نعرف فن أدبي قائم بذاته، يدرس جميع عناصر الدرس الأدبي، فيه دراسة علمية، ولكنني اخترت دراسة جانب موضوعي تحتاجه الساحة العصرية الحديثة في جانب من جوانبه الأدبية، والدراسات النقدية، والرحلات بشكل خاص، وإلا فإن هذا العنصر الرئيس من عناصر الدراسات الأدبية لا غنى عنه قديما وحديثا، ألا وهو جانب المرأة في رحلات العبودي، وقد انتهيت بعد الدراسة بنتائج عن هذا الجانب الأدبي الإنساني من رحلات العبودي...

1، إن الشيخ محمد بن ناصر العبودي رحال إسلامي، وإن كان الحس الأدبي واضح في وقوفه عند المرأة، ولكن الصورة التي ركز عليها هي صورة المرأة المسلمة.

2، وقف العبودي في رحلاته عند عمل المرأة في البلاد التي زارها، ومكانتها في مجتمعها سواء أكان عمالا خاصا لها أو عمالا يخدم بلادها.

3، ذكر صورا للمرأة لم تكن نعرفها في بلاد مختلفة؛ ليكون مثال الرجال الذي ينظر إلى صورة الآخر واختار الآخر تلك المرأة التي لها صورة تميزها في كل بلد.

4، لا شك أن قضايا المرأة التي وقف عليها العبودي ليس قضايا عميقة كوقوفنا عند قضايا المرأة في أمتنا لأنه يمر مروراً سريعاً للبلاد ولههدف معين لا يسعه أن يتعرف على قضايا المرأة في كل بلد بعمق.

5، وقفت على بعض المواضع للغة الرحلة في مواقف المرأة، وبعض الجوانب التاريخية لبعض الأماكن التي كان للمرأة دور فيها.

وأخيراً وإن وقفت تلك الوقفة فبلا شك أن هناك مواضع لم أقف عندها قد يجدها أحد غيري في دراسة أخرى..

الهوامش:

- (1) فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، مصر، ط1، ص 70
- (2) محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، لبنان، بيروت، ط2، 1983م، ص8
- (3) ينظر إلى عميد الرحالين مُحمَّد بن ناصر العبودي (حياته وإسهامه وجهوده) تأليف مُحمَّد بن عبدالله المشوح، دار الميمان، السعودية، الرياض، ط1، 1424هـ، 2004م
- * وينظر إلى مقال مُحمَّد بن ناصر العبودي رحالة العصر لمجدي سعيد، الشبكة العنكبوتية، نقلا عن حوار أجري مع د. فاطمة مُحمَّد العبودي.
- (4) انظر الى الشيخ العلامة عبدالله بن مُحمَّد بن حميد كما عرفته، مُحمَّد بن ناصر العبودي، ج2، دار الثلوثة، الرياض، ط1، 1432هـ، 2011م، ص380.
- (5) مُحمَّد ناصر العبودي، في جنوب الهند، ط1، 1997م، دار الثلوثة، الرياض، ص17.
- (6) معجم البلدان، دار صادر، بيروت - المجلد الأول، ط8.
- (7) ياقوت الحموي، الهند في العهد الإسلامي، ص 37، 117

(8) الرحلة في الأدب العربي، شعيب حليفي، الهيئة العامة للقصور، كتابات نقدية، مصر، ط5، ص 67.

(9) عبدالله بن حميد، الشيخ العبودي كما عرفته، مرجع سابق، ج2، ص36

(10) عبدالله حامد، أدب الرحلات، نادي أبها الأدبي، 2000م، المملكة العربية السعودية، ط1، ص184

(11) محمد ناصر العبودي، رحلات تايلند، مطبعة النرجس، المملكة العربية السعودية، 2001م، ص71.

(12) رحلات تايلند، محمد العبودي، مرجع سابق، ص45

(13) مؤلفات الشيخ محمد بن ناصر، مثل كتاب الهند، وبولندا، وفي أندونيسيا. وغيرهم من المؤلفات.

(14) محمد العبودي، في أندونيسيا، ص78

(15) محمد بن ناصر العبودي، في أندونيسيا، 2000، الثلوثية، الرياض، ط1، ص264

(16) المرجع نفسه، ص194

(17) وسط الهند، ص41

(18) محمد بن ناصر العبودي، رحلات في القارة الأوربية، البرتغال وبلجيكا وهولندا، ط1، 2008م، الرياض، ص37

(19) المرجع السابق، ص38

(20) محمد بن ناصر العبودي، في الهند، ص45

(21) محمد بن ناصر العبودي، النرويج، ص201

(22) البرتغال، محمد العبودي، ص241

(23) تايلند، محمد العبودي، ص91

(24) بولندا، محمد العبودي، ص249

(25) فنلندا، محمد العبودي، ص178

- (26) البرتغال، مُجَدَّ العبودي، ص 102
- (27) البرتغال، مُجَدَّ العبودي، ص 170
- (28) المرجع والصفحة نفسها.
- (29) الهند، مُجَدَّ العبودي، ص 129
- (30) مُجَدَّ العبودي، بلاد الهند، ص 38
- (31) مُجَدَّ العبودي، الهند، ص 72
- (32) مُجَدَّ العبودي، الهند، ص 198
- (33) أندونيسيا، مُجَدَّ العبودي، ص 185
- (34) النرويج، مُجَدَّ العبودي، ص 81
- (35) البرتغال، مُجَدَّ العبودي، ص 34
- (36) مع المسلمين البولنديين، ص 192
- (37) بلاد النرويج وفنلندا، ص 202
- (38) الهند، ص 37
- (39) المرجع نفسه، ص 139
- (40) بلاد النرويج وفنلندا، مُجَدَّ العبودي، ص 33
- (41) مُجَدَّ العبودي، بلاد النرويج وفنلندا، ص 30
- (42) مُجَدَّ العبودي، هولندا، ص 170
- (43) مُجَدَّ العبودي، مع المسلمين البولنديين، ص 176.

قائمة المراجع:

- 1- مُجَدَّ بن ناصر العبودي، رحلات في القارة الأوربية إلى شمال الشمال، بلاد النرويج وفنلندا، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1424هـ.

- 2- مُحمَّد بن ناصر العبودي، مشاهدات في تايلند، ط1، 1421هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية، إهداء للأمير عبد الله آنذاك.
- 3- مُحمَّد بن ناصر العبودي، رحلات في القارة الأوربية البرتغال وبلجيكا وهولندا، ط1، 1429هـ، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية.
- 4- مُحمَّد بن ناصر العبودي، مع المسلمين البولنديين، ط1، 1431هـ، مطابع الفرزدق، الرياض.
- 5- مُحمَّد بن ناصر العبودي، الرحلات الهندية، في وسط الهند، ط1، 1428هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية.
- 6- مُحمَّد بن ناصر العبودي، في أندونيسيا أكبر بلاد المسلمين، ط1، 1420هـ، مكتبة الملك فهد، الرياض.
- 7- عبد الله حامد، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، نادي أبها الأدبي، 1421هـ
- 8- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، إبريل 2002
- 9- حسين فهمي، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1409هـ
- 10- مُحمَّد بن ناصر العبودي، العلامة عبدالله بن حميد كما عرفته، ط1، ج1، 2، دار الثلوثة، 1432هـ الرياض.
- 11- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، المكتبة الثقافية، الهيئة العامة للكتاب 335، القاهرة 1976م
- 12- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، 1423هـ
- 13- مُحمَّد عبدالله المشوح، عميد الرحالين مُحمَّد بن ناصر العبودي، دار الميمان، السعودية، الرياض، ط1، 1424هـ

Index Librorum قائمة المراجع بالأحرف اللاتينية:

1. Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi, Itinera in Continente Europae ad Septentrionem: Terrae Norvegiae et Finniae – Er ‘Riyad – Bibliotheca Nationalis Fahdiana – 1424 A.H.
2. Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi, Commentarii de Terra Tābiland – Editio 1421 A.H. – Bibliotheca Nationalis Fahdiana – Donum Principi Abdullah eo tempore.
3. Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi, Itinera in Continente Europae: Portugallia, Belgica et Nederlandia – Editio 1429 A.H. – Er ‘Riyad – Bibliotheca Nationalis Fahdiana.
4. Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi, Cum Muslimis Poloniae – Editio 1431 A.H. – Officinae Alfardiyya – Er ‘Riyad.
5. Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi, Itinera Indica Mediae Indiae – Editio 1428 A.H. – Bibliotheca Nationalis Fahdiana.
6. Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi, In Indonesia, Maxima Terra Muslimorum – Editio 1420 A.H. – Bibliotheca Fahdiana – Er ‘Riyad.
7. Abdullah Hamid, Pater Peregrinationis in Regno Arabico Saudiano – Circulus Literarius Abhalensis – Editio 1421 A.H.
8. Shu‘ayb Halīfī, Peregrinatio in Litteris Arabicis – Consilium Generale pro Palatiis Culturae – Aprilis 2002.
9. Hussein Fahim, Patres Peregrinationum – Consilium Nationale Culturae – Kuwaitum – 1409 A.H.
10. Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi, Doctus Abdullah ibn Humaid Ut Cognovi Eum – Editio Secunda – Dar Al ‘Thawabiya – Editio 1432 A.H. – Er ‘Riyad.
11. Husni Mahmoud Hussein, Liber Peregrinationum apud Arabes – Bibliotheca Culturalis – Consilium Generale Libri 335 – Cairus 1976 A.D.

12. Fuad Qandeel, Liber Peregrinationum in Patrimonio Arabico – Bibliotheca Dar Al ‘Arabiya Lilkitab – Editio 1423 A.H.

13. Muhammed Abdullah Al ‘Shuja, Princeps Peregrinatorum: Muhammed ibn Nasser Al ‘Aboodi – Dar Al ‘Mithan – Arabia Saudiana – Er ‘Riyad – Editio 1424 A.H.